

هَنْدَسَةُ الْعُنُونَةِ فِي رَسَائِلِ مُحَمَّدِ الْبَشِيرِ الْإِبْرَاهِيمِيِّ

Engineering the Titles in the Letters of Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi

*سليم بن حملة

Salim Benhamla

كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر - بسكرة - (الجزائر)

مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها.

University Mohammed khider- Biskra- (Algeria)

insar04salimbenhamla@gmail.com

تاريخ النشر: 2021/06/02	تاريخ القبول: 2020/02/04	تاريخ الإرسال: 2020 /11/06
-------------------------	--------------------------	----------------------------

مُلْحَصُ الْمَحْضَرِ

يُشكّل "العنوان" في أيّ عملية إبداعية أول عتبة تصافح المتلقي، وهو خطوة مهمة يضعها المؤلف ليصدر بها خطابها. ونظرا لأهمية العنوان فهو آخر ما يُختتم به العمل الأدبي. وعلى الرُغم من قصر حجمه، فهو يلخّص المحتوى الذي يأتي بعده، لذلك يحرص الكتاب والشعراء حرصا شديدا على حسن اختيار عناوين أعمالهم.

وقد اهتمّ محمد البشير الإبراهيمي بعناوين رسائله العامة التي كان يكتبها وينشرها، ويحرص على اختيار صياغتها وصناعتها وجبكتها، حرصه على أنيقة أسلوبه في مختلف خطاباته الإبداعية. وهي عناوين تشكّل بحق سحرا يجذب القارئ جذبا لقراءة النص كاملا؛ ليكتشف في الأخير التّطابق التام بين محتوى الرسائل الطويل، وبين العناوين الجميلة التي تتصدّرها، إلى درجة اعتبرها البعض بمثابة "النص الموازي". وفي هذا المقال وقع اختيارنا على بعض الرسائل، حاولنا من خلالها دراسة هندسة العنونة التي توصل إليها الإبراهيمي، وكشف التّقاب عن بعض الدلالات والأبعاد التي يمكن لهذه العناوين أن تنطوي عليها.

الكلمات المفتاح: هندسة؛ عنونة؛ رسائل؛ إبراهيمي.

Abstract

In any creative process, the "title" is the first threshold for shaking hands with the recipient, and it is an important step that the author sets to export his speech. Due to the importance of the title, it is the last word to conclude a literary work. Despite its short size, it summarizes the content that comes

*سليم بن حملة. insar04salimbenhamla@gmail.com

1045

after it, so writers and poets are keen to choose the titles of their works well. Mohamed Al Bachir Al Ibrahimi paid great attention to his public letters titles which he used to write and publish. He showed great interest while in choosing them precisely cautiously and finely in the same way when writing his articles. Really, his titles shows magic effect that attracted the reader to read the entire text to discover finally how linked are both the long letters with those beautiful titles at their beginning to the extent that some argued that these titles might well be the « "equivalent" text.

In this article, we focused on seven letters and tried through them to tackle and learn the engineering of titles done by Al- Ibrahimi and uncover some of the senses and meanings which such titles may embody.

Keywords: Engineering; Entitling; Letters; Ibrahimi



مقدمة:

ظلّ محمّد البشير الإبراهيمي حريصاً جداً على حسن اختيار عناوين رسائله التي كان يكتبها ويرسلها إلى أصحابها، أو تلك التي كان ينشرها لكافة القراء في الصحف والمجلات داخل الوطن وخارجه، كرسائل عامة (رسائل أدبية). وهذه العناية هي جزء من شخصيّة العلامة الفكرية والإبداعية والأسلوبية التي طبعت نتاجه جميعاً؛ حتى أصبحت سمة بارزة تميّزه عن غيره من الكتاب العرب والجزائريين.

1- عناوين رسائل الإبراهيمي:

اهتمّ الإبراهيمي برسائله اهتماماً بالغاً كاهتمامه بكلّ الفنون الأدبية التي كتب فيها، نثراً وشعراً فنحده يتفنّن في كلّ الجزئيات والدقائق واختيار المفردات والجمل والصور ويتحرّى التعبيرات الجميلة التي تحقّق المعنى، ونراه يجتهد في إخراج ما في جعبته من أفكار ومعلومات وكثير من محفوظه الكبير؛ ولذلك جاءت رسائله تُحفّا أدبية رائعة تضاهي ما كتبه الكبار الذين سبقوه: " لقد خلق الإبراهيمي هذا الفنّ من عدم، تقريبا، إذ لم يمر بمراحل تطوريّة تذكر - كالفنّ القصصيّ مثلا أو المسرحيّ - وبلغ به إلى هذه المنزلة الرفيعة حين كان سجيناً بأفلو، بالرغم من أنّنا لم نستطع الاطلاع على جميع رسائله التي كتبها إلى أصحابه وأصدقائه." ¹

ومن هنا جاء اهتمام الإبراهيمي بعناوين رسائله، وعنايته بها عناية فائقة؛ إذ يحرص دائما على حسن هندسة عناوينها، حرصه على اختيار المواضيع والأساليب والألفاظ والصّور. فلا يكتب

رسالة - مهما كان نوعها- إلا وينتقي لها أجمل العناوين وأقواها جذبا وتشويقا للقارئ، فكان يختارها في شكل جمل فعلية حيناً، وجمل اسمية حيناً آخر لتستهوي القارئ، وبخاصة في الرسائل الوصفية (العامة) فينتقي لها عناوين من لبّ المواضيع تارة، ومن التراث العربيّ القديم الأصيل تارة أخرى من أمثال وحكم، كرسالته الموسومة بـ (عادات لعترها لميس).

كما كان الإبراهيمي يحرص على تضمينها السجع، وهو كثير عنده - كرسالته التي كتبها بمناسبة وفاة صديقه العلامة عبد الحميد بن باديس - رحمه الله - الموسومة بـ (مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة). وربما اشتقّ عناوينه من قاموس الحيوانات الذي اختزن بذاكرته منذ الصغر كما في رسالته المشهورة (رسالة الصّب) ليدخل القارئ في دوامة من التفكير عن سرّ هذا الحيوان وكنهه، والذي استطاع الإبراهيمي أن يبرز أسرار الغريبة التي استوحاها من حافظته الجبارة التي اختزنت النصوص الشعرية، والآثار الثرية، والقصص القديمة عن هذا الحيوان الصحراوي، والرمزية الرائعة التي يحملها هذا الكائن العجيب.

لقد كتب الإبراهيمي عددا من الرسائل، وضاع كثير منها، وقد اجتهدنا في جمع ما وسعنا الجهد منها، وقمنا بتصنيفها بحسب أنواعها المتعددة المعروفة (إخوانية، ديوانية، عامة)، وبحسب مواضيعها والشخصيات والأشخاص المرسل إليهم.

وقد شدّ انتباهي اهتمام الإبراهيمي بحسن بناء رسائله على الإجمال، والدقة في اختيار العناوين المناسبة لها بشكل يثير رغبة القارئ في قراءة النص كاملا، وفكّ "الشيفرة" التي يلقها العنوان المختار لأوّل وهلة.

2 - العنونة وعلاقتها بالتصويع:

والعنوان في الرسالة أوّل ما يصفح عيّن المتلقي، وهو أوّل خطوة تستقبله للدخول في الموضوع، وربما كان آخر شيء يكتب، ليلخص فيه الكاتب محتوى المضمون، ويهيئ الناس ليكونوا فكرة ولو أولية موجزة عن كُنه ما يريد قوله. لكن قبل الخوض في عناوين رسائل الإبراهيمي وكيفية هندستها يجدر بنا طرح السؤال التقليدي التالي: ما هو العنوان؟

لقد تعددت مفاهيم العنوان كمصطلح، ولم ينضبط بمفهوم واحد وموحد بين النقاد، حيث اختلفت دلالاته عندهم باختلاف الزاوية التي تمّ النظر إلى العنوان من خلالها، أو ربما اختلفت بحسب دلالة الوظائف التي يمكن للعنوان أن يضطلع بها. ومن هنا أصبح من الصعب التوافق على

مفهوم واحد للعنوان. فهذا مثلا ليو هوك (LeoH.hoek) يرى أنه: "من الصّعب وضع تعريف محدّد للعنوان نظرا لاستعماله في معانٍ متعدّدة".² وعلى الرّغم من هذه الصّعوبة التي يؤمن بها ليو هوك في تحديد مفهوم للعنوان إلاّ أنّه يعرّفه بقوله: "العنوان مجموع العلامات اللّسانية (كلمات، مفردة، جمل...) التي يمكن أن تدرج على رأس كلّ نصّ لتحديدّه، وتدلّ على محتواه العام، وتغري الجمهور المقصود".³

بينما يعرّفه محمّد الهادي المطوي بقوله: "فهو رسالة لغويّة تعرّف بجميّة النّص، وتحدّد مضمونه، وتجذب القارئ إليه، وتغويه به".⁴، وهذه بشرى البستاني تركز المفهوم نفسه، وتعرّف العنوان بقولها: "رسالة لغويّة تعرّف بتلك الهويّة وتحدّد مضمونها، وتجذب القارئ إليها وتغريه بقراءتها، وهو الظاهر الذي يدلّ على باطن النّص ومحتواه".⁵

والعنوان في أيّ خطاب يعتبره البعض نصّا قصيرا يعكس النّص الكبير، يتشكّل في عبارات مختصرة جدّا ومركّزة ومقتصدة، كما يرى محمّد فكري الجزّار على أنّه: "يشكّل أعلى اقتصاد لغويّ ممكن".⁶ بل إنّ بعض النّقاد، ونظرا لأهميّة العنوان على صغر حجمه، وخطورة الوظيفة التي يؤديها للمتلقّي يعتبرونه نصّا موازيا (paratexte) للنّص الكبير. وهو ما ذهب إليه جاك فونتاني (jaques fontanille) حيث يرى: "أنّ العنوان مع علامات أخرى هو من الأقسام النّادرة في النّص التي تظهر على الغلاف، وهو نصّ مواز له".⁷

والأصل في العنوان على اختصاره ينبغي أن يكون مضبوط الحبكة، واضح العبارة، غير قابل للتأويل، يفتح الشّهية للقارئ؛ ليقبل على النّص كاملا؛ يعكس محتوى الخطاب فتكون نهاية القراءة منه موافقة لأفق الانتظار والتّوقّع الذي ينتظره المتلقّي من خلال قراءة العنوان. وقد بالغ البعض في اهتمامه بالعنوان إلى درجة جعله هو الأصل والنّص فرع عنه!؛

وربما تعمّد بعض الكتّاب الغموض والإبهام في اختيار العناوين؛ حتّى يشوّش على أفكار القارئ، ويشتّت أفق انتظاره، ويتأولّ نهايات معيّنة غير متوقّعة إطلاقا، ثمّ يصطدم آخر النّص بنهايات غريبة لم تكن في خلد المتلقّي، لعلّ الهدف من ذلك إقحامه في بناء دلالات النّص، وعدم تقديم الخطاب على طبق من ذهب - كما يُقال - وهو ما ذهب إليه إيكو (Eco).

وإذا كان المبدعون والأدباء والخطباء في العهد الأوّل لم يكونوا مهتمّين بوضع العناوين لخطاباتهم ونتاجهم؛ فإنّ من جاء بعدهم اهتمّوا بها، وتفنّنوا في هندستها واختيار مفرداتها

وصياغتها لتعكس محتوى التّصوّص المكتوبة شعرا ونثرا: "فلولا العناوين لظلت كثير من الكتب مكدّسة في رفوف المكاتب، فكّم من كتاب كان عنوانه سببا في ذبوعه وانتشاره، وشهرة صاحبه، وكم من كتاب كان عنوانه وبالاً عليه وعلى صاحبه".⁸

3- العنوان أهمّ عتبة في النّص:

العنوان في الرسالة أوّل خطوة للدّخول في الموضوع، وربما كان آخر شيء يكتب، يُلخّص فيه المؤلّف محتوى المضمون، ويهيئ الناس ليكونوا فكرة ولو أوليّة موجزة عن كنه ما يريد قوله. ولذلك يتّجه القارئ رأساً إلى هذه العتبة لغلبة ظنّه أنّها أهمّ جزء في الخطاب، وهو المرآة المصعّرة والملخّصة للمحتوى، فيه إيحاء، لكنّ النّص يعكس فكرته العامّة، إلى حين الانتهاء من قراءته كلّية. يقول محمّد الصّالح خرفي وهو يتحدّث عن عنوان الرّواية: "فهو جزء من النّص لا النّص، والقارئ يلتفت أوّل الأمر إليه، لأنّه أوّل ما يصادفه في غلاف الرّواية الأوّل... فهو في الأغلب الأعمّ، خلاصة النّص، ويساهم في توجيه المتلقّي".⁹

ويدخل العنوان في أيّ نصّ ضمن العتبات النّصيّة، بل هو أهمّ عتبة يهتمّ بها المؤلّف والمتلقّي على حدّ سواء قبل أيّ عتبة أخرى من غلاف وصورة وإهداء وشكر وغيرها، إذ: "لم تحظ عتبة من العتبات النّصيّة بمثل ما حظيت به عتبة العنوان، ذلك أنّها أولى عتباته التي تمثّل مراحلها التي يقع عليها المتلقّي سيكولوجيا ومعرفيا، ممّا قد يحيل إليه، ممّا هو خارج النّص أو داخله".¹⁰

فالعنوان إذا وُضع بعناية فائقة سيخدم القارئ في تشويقه لقراءة النّص، والإقبال عليه بنهم وشغف كبيرين، ويدفعه دفعا إلى قراءته، وكشف خيوطه، وتحليل أفكاره، وحلّ أقفاله، فهو (العنوان): "يقوم بعملية اختزال للنّص، كما يؤدي دور المحفّز لدلالاته الكامنة فيه، فاتّحاً بذلك أفقا للقراءة يتقاطع فيها عالم النّص، وعالم القارئ".¹¹ ونظرا لأهميّة العنوان على بدعيّة وجوده فهو أوّل ما يشدّ القارئ إلى العمل الأدبيّ. يقول عبد الله الغدّامي: "...ومع ذلك فهو عادة أكبر ما في القصيدة، إذ له الصّدارة، ويبرز متميّزا بشكله وحجمه، وهو أوّل لقاء بين القارئ والنّص وكأنّه نقطة الافتراق، حيث صار هو آخر أعمال الكاتب، وأوّل أعمال القارئ. وعند ذلك يبدأ التّشريح والتّفكيك".¹²

وربما اهتمّ بعض الكتاب والشّعراء بالعناوين، واختاروا البراق منها، وحسّنوا عباراتها، وانتقوا لها نوعا من الخطّ الجميل الجذاب، واستعانوا بعناوين سابقة نالت شهرة معيّنة، أو عرفت بشهرة

أصحابها المرموقين، وربما استهواهم الجانب الجماليّ فيها وهو مطلوب لكن، ذلك لا يعني أن يعكس محتوى فكرتاً أجوف، أو مضمونا أفرغ من فؤاد أم موسى: "إنّ للعنوان، العتبة الكبرى وظيفة جماليّة لا شكّ في ذلك، وكثيرا ما يكون العنوان مشيراً محفّزاً مقلّقا، لكنّ ذلك لا يعني على الإطلاق إغفال الوظيفة الفكرية، فكثيرا ما تكون العتبة الكبرى مشحونة بقيم ورؤى. إنّ العنوان هوية النصّ التي يمكن أن يختزل فيها معانيه ودلالاته المختلفة. ليس هذا فحسب، بل حتّى مرجعيّاته وإيديولوجيّته." ¹³

4 - العناوين مرآة لأسلوب الإبراهيمي:

الحديث عن عناوين رسائل الإبراهيميّ يجرّنا إلى الحديث عن أسلوبه ككلّ، فهو ينتمي إلى مدرسة الصنعة الحديثة، ببصمة إبراهيميّة جديدة بعيدة عن التكلّف والتزلف للقواميس، والاتكّال على التّبش في أمّات الكتب؛ لانتقاء الغريب من ألفاظها، فقد كان حريصا فيه على وضع كلّ كلمة في مكانها، وكلّ حرف في موضعه، ينتقي عباراته بعناية فائقة، فالأدب عنده لم يكن يوما بضاعة مزجاة يلوكها كلّ من هبّ ودبّ، في سوق الخردة الأدبية. فالإبراهيميّ صنع لنفسه اسما لامعا في مدرسة الأسلوبية المتفرّدة، دأبه وديدنه أن تبقى متميّزة لا تشوبها شائبة، حتّى ولو تعلّق الأمر بمجرّد "عنوان".

ولأمر ما كتب يوما عتابا لطيفا للقراء والكتّاب على حدّ سواء، ممّن استصعب أسلوبه واستعسر لغته في ظرف عزّ فيه التّاطقون باللّغة العربيّة في الجزائر، وأضحى المعرّبون أندر من الكبريت الأحمر، وأعزّ من بيض الأنوق* إبان الحقبة الاستعماريّة الفرنسيّة. يقول عبد الملك مرتاض: "لم يكن الإبراهيميّ متساهلا مع كتّاب البصائر، فقد كان يغريهم بالتّجويد في الأسلوب ويزجي بهم أن يرتفعوا إلى المستوى العالي من فنّ القول. ويستطيع الباحث في الصّحافة العربيّة المعاصرة في الجزائر، أن يعتبر البصائر أرقى صحيفة عربيّة ظهرت في وطننا حتّى الآن، من حيث الأناقة اللّفظية، والرّوعة الأدبيّة. أقول هذا وإنّ كنت لا أعدم من يختلف معي فيه. وهذه البصائر نفسها تتحدّث لنا عن أسلوبها، فلنضع نحن، ولتقلّ هي:

للصائر طرفان: أعلى، وهو معرض العربيّة الرّاقية في الألفاظ والمعاني، والأساليب، وهو السّوق الذي تجلب إليه كرائم اللّغة، من مأنوس صيره الاستعمال فصيحاً، وغريب يصيره الاستعمال مأنوساً. وهو مجلى الفصاحة والبلاغة في نمطها العالي، وهو أيضا النموذج الذي لو احتذاه النّاشئون من أبنائنا

الكتاب لفحلت أساليهم، واستحكمت ملكاتهم، مع إتقان القواعد، ووفرة المحفوظ. ولهذا الطرف رجاله المعدودون، وهو نمط إعجاب أدباء الشرق بهذه الجريدة.

وطرف أدنى، وهو ما ينحط عن تلك المنزلة، ولا يصل إلى درجة إسفاف، وبين الطرفين أوساط ورتب، تعلق وتنزل، وهي مضطرب واسع يتقلب فيه كتابنا، من سابق إلى الغاية، مستشرف لبلوغها ومقصر عن ذلك.¹⁴

5- التنوع في هندسة العناوين:

لقد تنوعت العناوين في رسائل محمد البشير الإبراهيمي بين الطويل والقصير، وبين الحمل الفعلية والحمل الاسمية، وبين الحمل الخبرية حيناً، والإنشائية حيناً آخر، كما كان يختار بعناية حكماً عربيّة قديمة أو أمثالا نادرة من التراث العربي؛ لإثارة الاستفهام أكثر لدى المتلقي. كما تأتي عناوينه - في مجملها - في شكل جملة طويلة يطبعها السجع الجميل، أو قد تأتي في شكل عبارات مبهمّة بشكل تشبيه متعمد لخلق القابلية للغير لاستقبال المعنى الذي يرغب في إيصاله لهم. وقد وجدنا له رسائل صدرها بعناوين صغيرة، في شكل جملة قصيرة، لا تتعدى كلمتين تترك انطبعا لدى متصفحها عن سرّ هذا العنوان اللغز؛ ليفاجأ بعده بنصّ طويل يشرح العنوان، ويدفع القارئ إلى البحث عن الجوانب الجمالية، ويدبج من خلاله أسراراً جمّة عنه في مختلف المواضيع.

6- وظائف العنوان:

وإذا كان للعنوان هذه الوظيفة الجمالية والفكرية، فإنّ هناك وظائف أخرى عدّة¹⁵ لعلّ أهمّها الوظيفة التأثيرية التي تعمل على توطيد العلاقة بين القارئ والعنوان؛ لإقناعه بالتجاوب مع النصّ والتفاعل معه، بل وتحتّه على إمكانية ردّ فعل اتجاه المحتوى: "وما يهمننا من جملة هذه الوظائف الوظيفة التأثيرية كونها تُعنى بالعلاقة بين القارئ والعنوان، إذ تجسّد الضّغط الذي يمارسه العنوان على القارئ، ومن ثمّ جذبه وتحريضه ليحدث فعل الاستجابة، لأنّ العلاقة بين المرسل إليه(القارئ) والرّسالة تقوم على مجموعة من المفاوضات تزداد تعقيدا وتشويقا كلّما بعدت العلاقة بينهما حين تبرز لعبة الخفاء والتّجليّ، الحضور والغياب، الواقع والمتخيّل، الوجود والعدم."¹⁶

7 - هندسة العناوين عند الإبراهيمي:

1-العناوين جمل اسمية:

لقد فضّل الإبراهيمي في عديد من رسائله اختيار عناوين في شكل جمل تامة اسمية حيناً وفعليّة حيناً آخر. فالكلام، أو (الجملة) هو: "ما ترّكّب من كلمتين أو أكثر، وله معنى مفيد مستقل... فلا بدّ في الكلام من أمرين معاً؛ هما: "التّركيب" و "الإفادة المستقلّة".¹⁷

ولعلّ أهميّة الموضوع المطروق، هي التي تفرض هندسة العنوان في شكل جمل اسمية طويلة؛ لأنّه - عادة - لا تعكس العناوين المقتضبة لبّ المضمون، وتتركّ التصور لدى القارئ مطلقاً، وغير منضبط، وربّما تكون هذه الجملة (العنوان) مختارة من فقرة من فقرات الرّسالة المكتوبة.

والجملة الاسميّة هي: "كلّ جملة تبدأ باسم بدءاً أصيلاً، أو هي التي يكون الاسم ركنها الأوّل، نحو: "يزيد نجح" و "الطقس ممطر".¹⁸

1-1 النموذج الأوّل: رسالة / مناجاة مبتورة لدواعي الصّورة:¹⁹

ستّة أيّام فقط بظلامها وظلمها، بأحزانها ووحشتها، بوحدتها وانفرادها، مرّت على سجن محمّد البشير الإبراهيمي في آفلو،²⁰ في العاشر من أفريل سنة 1940م، بقرار من السلطات الفرنسيّة الظّالمة المتعجرفة المتغترسة.

وقبل أن تألّف عيناه غياهب الرّزانة، ويألف الوحدة القاتلة ببرودتها التي تنخر العظام، دوّما حيلة سوى ﴿إني مغلوب فانتصر﴾؛²¹ انتهى إلى مسمعه الخبر الموجع الصّاعق على القلب الوهّان؛ ليزيد من ألم صاحب العرجة ألماً، ويضفي على الصّدر المكلم همّاً، ويعمّق من الأحزان المتتالية غمّاً. إنّه خبر وفاة صديق الدّرب والصّاحب المقرّب والحميم المخلص، الذي أسّس معه جمعيّة العلماء العلامّة ابن باديس، أغدق الله عليه من شأيب رحمته في 16 أفريل 1940م.

فأتى للقيّد أن ينكسر، وللأبواب الحديدية أن تشرّع، وللسّجان أن يطلق سراحه ولو لبعض الوقت؛ للانطلاق نحو قسنطينة تعزية للنّفس، والوطن والشّعب الجزائريّ في وفاة هذا الرّجل العظيم، وتأيينه بأحسن ما يكون التّأبين، والصّلاة على الجثمان الطّاهر، وإلقاء النّظرة الأخيرة على الوجه السّمح، ولكن هيهات! هيهات! لا سبيل إلى ذلك إلاّ بمناجاة مبتورة أملتها دواعي الصّورة!؟ "ولم يكن الشّيخ ابن باديس، بالقياس إلى الإبراهيمي، صديقاً حميماً فحسب، ولا رفيقاً في النّضال من أجل العروبة والإسلام فحسب، ولا ظهيراً في الاجتهاد والإصلاح فحسب، ولا زميلاً في الكتابات الإعلاميّة والأدبيّة فحسب؛ ولكنه كان كلّ ذلكم جميعاً. فلمّا توفّي اللّه ابن باديس في 16 أفريل 1940، كان الإبراهيمي منفيّاً في قرية آفلو، فلمتسمح له الإدارة

الاستعمارية بالظعن إلى قسنطينة لشهود تشييع جنازة الشيخ الفقيه، فزاد ذلك في أشجان الإبراهيمي وحسراته، وحزقاته ولوعاته. وجاءت الذكرى الأولى لوفاة ابن باديس، والإبراهيمي لا يبرح رهين المنفى حيث كان، فكتب كلمة ربما تكون من أجمل ما كتب الإبراهيمي على وجه الإطلاق.²²

وقد كتب الدكتور عبد الملك بومنجل عن هذه الرسالة فقال: "الرسالة الأولى (مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة) تعدّ حقاً درّة غالية من درر الأدب العربي، ونادرة عزيزة من عيون الرسائل الأدبية، استطاع الإبراهيمي فيها أن يجتاز حدود اللغة ليسبح في آفاق الخيال، ويرتفع عن بساطة التعبير ليملاً الرسالة بمختلف ألوان الصّور، ويرع في تسخير الألفاظ والتراكيب ليجعل من الرسالة متنقّساً لمشاعره الزّاحرة، وقطعة من الموسيقى تملأ الأسماع طرباً، وتحرّ القلوب استماعاً وانفعالاً، فإذا القارئ يجد نفسه ساجداً في بحر الرسالة، غارقاً في معانيها وصورها الزّاحرة بالحياة والحزن والحبّ ومختلف المشاعر الرقيقة الفياضة. فكأنّما الإبراهيمي يصف الحياة لا الموت، الأفاق يتنفس، والصّباح يتبسّم، والشّجر يتوهج عبيره، والبدر ينبّج نوره، وصور أخرى كثيرة، حيّة زاهية ومثيرة، تزدان بها هذه الرسالة الرّائعة."²³

فكلمة (مناجاة) توحى بإبداء أسرار النفس، والبوح بمكامن الهمّ في سمع الآخر، والكلامبسرّ ما في القلب من عواطف وغيرها، وربما يناجي الله في السرّ والعلانية، يوجه كلامه إلى الله لإظهار خشوعه وعبادته. ولكن من هو هذا الآخر الذي ناجاه الإبراهيمي في وحدته الانفرادية في سجنه المظلم؟! أتراه ناجى الله الذي يعلم السرّ وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟ وهو (الله) خير من يناجي العبد في الخلوات والجلوات، خاصّة إذا كان مظلوماً، بعيداً عن الوطن، وهو وفي وطنه، وبعيداً عن الأهل والأحباب، وبخاصّة إذا كان الحبيب المقرب قد فارق الحياة، ولا أمل في اللقاء، أو إلقاء نظرة أخيرة عليه ﴿إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله﴾.²⁴

أمّ يا تراه يناجي روح صاحبه الغالي (عبد الحميد) حتّى ولو بعدت المسافات؟ فالأرواح لا تعترف بالحدود، ولا بيؤن الدّيار، ولا بالأسوار العالية، ولا بالقصور المشيّدة؛ ف"الأرواح جنود مجتّدة، ما تعارف منها ائتلف؛ وما تناكر منها اختلف."²⁵ ويأتي الجواب سريعاً في خمس صفحات؛ ليعلمنا أنّ الجميع معنيّ بهذه المناجاة، العلماء التلاميذ، والمعاهد، والمدارس، والشّيوخ، والأعوان، والأصحاب، والقبر، وصاحب القبر، والأمة كلّها.

لكن- للأسف- هذه المناجاة كانت (مبتورة)، وهي من حقل مقصوصة، مبتوتة، مقطوعة، ناقصة، غير تامة، ليست مكتملة...!) فمن قطعها؟ ومن ذا بترها؟ وقصّ جبل الوصال فيها؟! أهمّ الزبانية في سجن آفلو؟ أهي يد القضاء والقدر؟ أم هو الهمّ والحزن اللذان سريلا القلب بسرّيهما؟! أهو البعد- بعد المسافة-؟ أم هي جميعا مجتمعة في آن واحد؟ لا علم لنا. فقد اختار الإبراهيمي كلمة (مبتورة) على وزن (اسم المفعول) للدلالة على البناء للمجهول. وعندما يتضمّن العنوان هذه الصيغة؛ يترك استفهامات عدّة لدى القارئ، وتساؤلات كثيرة؛ لإشراكه في المحنة والحيرة عن أسباب الحالة النفسية العاتية التي انتابت الإبراهيمي بعد سماعه بالمصاب الجلل الذي حلّ بالأمة، والمصيبة التي حالت دون مشاركته الشعب في التخفيف من هول الكرب.

و(مناجاة) كلمة أوردها (مفردة)؛ لتوحي ببثها في مكان واحد، وفي لحظة واحدة. أمّا (الدواعي) إليها فأوردها بصيغة (الجمع) لتعدّها كما ذكرنا آنفا.

وعنوان هذه الرسالة (مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة)، له شقان، كلاهما ورد خبريًا، وهو الأنسب لما في النفس من هواجس وأحزان وآلام... فالإبراهيمي يرغب في إخبارنا بالمناجاة التي خالجه مع وصفها بأنها (مبتورة)، ليستأنف بجملة خبرية ثانية مباشرة لإخبارنا ب (دواعي الضرورة) التي حالت دون تحقيق الكمال في مناجاته.

والعنوان يكشف مدى اهتمام الإبراهيمي بالسجع (مبتورة - ضرورة)، يقول عبد الملك مرتاض عن الرسالة: "... فإذا هذه الرسالة تغدو من أجل ما كتب في الأدب العربي الحديث، مع ما قد يبدو في هذا الحكم من إسراف: جمال عبارة، وعذوبة لفظ، وصدق شعور، وقوة عاطفة بالإضافة إلى ما فيها من كرائم المعاني التي تدلّ على الوفاء للأموال، وهي صفة عالية لا تكون إلاّ في قلّة من الناس. ويبدو هذا الوفاء قويًا واضحًا في هذه العبارات الباكية التي لا يقرؤها أديب قراء واعية إلاّ أبكته وملأت نفسه أسى وحسرة ولا أحسب أنّ قصيدة متمّم بن نويرة في رثاء أخيه مالك، أشدّ تأثيرًا في النفس، وأكثر وقعًا في القلب الحزين، من هذه الرسالة التي كتبها الإبراهيمي تأبينًا لابن باديس، ورثاء له معاً."²⁶

1-2 النموذج الثاني: رسالة/ تحية غائب كالأيب.²⁷

يبدأ الإبراهيمي عنوان هذه الرسالة بهذا الأسلوب الخبري المباشر، بجملة اسمية (تحية غائب) للوطن العزيز (الجزائر) من دار غربة (لم يسمها)، غربة فرضتها ظروف المكان والزمان والحال، دامت سنة وبعض السنة، فهو غائب بالجسد المنكسر التحيف، والعرجة البيّنة التي عوضتها عصاه الخشبية التي يتوكأ عليها في محافل البعاد، ويتقوى بها في المسير هنا وهناك، وربما كانت له فيها مآرب أخرى.

و(غائب) من عائلة (مسافر، مغترب، مهاجر، راحل، بعيد، غريب)، ومُرسل التحية (غائب) على وزن (اسم الفاعل)، أوردتها (نكرة) للدلالة على الشعور بالغربة والوحدة، كأنما هو شخص بلا هوية، في عالم يتحرك نحو الأمام، الكلّ يتغنى بوطنه إلا هو، ينتابه الإحساس بالغبن كأنه يتيم بلا أرض تحتضنه؛ لأنّ وطنه أسير، مغتصب، مُستعمر من قوّة قاهرة، رافل في قيود فرنسية صدئة.

و (الآيب) من حقل (العائد، الرّاجع، التائب، المنيب)، وهو (اسم فاعل) أيضا للدلالة على الفعل ومن قام به. وقد تعمّد الإبراهيمي صوغها صياغة معرفة ب (ال)(الآيب) للدلالة على الإيمان بالرجوع إلى أحضان الوطن (الجزائر) بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل، وللتأكيد على العودة إليه آجلا أم آجلا.

وفي العنوان (تحية غائب كالأيب)، تشبيهه بديع من نوع المجمل، حيث شبّه نفسه (غائب) وهو المشبّه، ب (الآيب) وهو المشبّه به، بوساطة أداة التشبيه (حرف الكاف). وفي هذا التشبيه مساواة ضمنية بين المشبّه والمشبّه به للإيحاء - بعيدا عن المبالغة - بأنّ الغائب - تماما - كالأيب - لا محالة - فتحيته إلى المحبوب كأنّها مباشرة صدرت من قلب يعيش بين أحضانه حتى ولو بانّت المسافات.

وقد حذف الخبر المتعدّد (للوطن)، من الجملة الاسمية (تحية غائب)، وفيه إشارة واضحة لغياب الوطن وتغييبه من المشهد، وهو المعني بالتحية بالدرجة الأولى، والبعد عنه ولو جسديا، لأنّه محتلّ احتلالا كاملا، حتى يئس أبنائه، ودبّ في نفوس بعضهم روح الاستسلام والانحزام، وقليل منهم فقط ظلّ اعتقاده ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾²⁸ كما فيه إشارة إلى شدة الشوق إلى (من تدبّر الجزائر) من الإخوان (العلماء، الأنصار، شبّان الجمعية...).

1-3 التّمودج الثالث: رسالة/ ويح المستضعفين²⁹

بهذا الإشفاق اختار الإبراهيمي عنوان رسالته للمستضعفين. وكلمة "ويح" كلمة ترخم، لها أحكام "ويب"، وتعرب إعرابها.³⁰ وفي القاموس العربي الأساس: (ويح) كلمة ترخم وتوَجَّع، وقيل: بمعنى "ويل"، "ويح له"، "ويحاله"، "ويجه"، "ويحك أيها المغرور."³¹

ولعلّ الإبراهيمي في نصّه (رسالته) انحاز متعمداً إلى هذه الكلمة "ويح" ترخماً على الأمة المستضعفة التي تكالب على نهشها الأقوياء، وتوجّعا على أوضاعها المزريّة في آن. فقد تداعى عليها الأكلة المتعطرسون من كلّ حدب وصوب، ونهبوا خيراتها، وأكلوا لحمها، ونهشوا عظمها تاركين إياها مستضعفة، هزيلة، مسكينة لا تلوي على شيء؛ إلى درجة أصبحت أهلاً للشفقة والتّرخم والتوجّع على حالها البئيس (البائس)، فهي أهل للاستعطف.

وإضافة "ويح" لـ "المستضعفين" توحى بتجريد المقصودين من العزة التي كانوا يتمتعون بها، والكرامة التي لبستهم أباً عن جدّ منذ آلاف السنين.

واختيار اسم المفعول "مستضعف" (بضمّ الميم وفتح ما قبل الآخر)، فيه إشارة إلى إلحاق الضّعف بمؤلاء المغلوبين على أمرهم من طرف قوى الاستعمار الفرنسيّ الغاشم منذ أن وطئت أقدامه هذا البلد الطاهر، واستضعاف أهله، وإذلالهم من حين إلى آخر، وإضعافه لهم ظلّ دوماً في حالة من التّجدّد والحدوث بين فينة وأخرى في أشكال مختلفة، وصور متعدّدة؛ ولهذا فاختيار صيغة (اسم المفعول) كانت هي الأنسب لوصف المقام والحال.

واسم المفعول كما عرّفه التّحويون هو: صفة تُؤخذ من الفعل المجهول، للدلالة على حدث وقع على الموصوف بما على وجه الحدوث والتّجدد، لا الثبوت والدوام.³²

فأساليب الاستعمار الغاشم في إذلال الجزائريين العزل متنوّعة، وفنونه في كسر كرامتهم متعدّدة وهي مع ذلك مُتجدّدة بين فترة وفترة، إذ لم يكن يهدأ له بال، ولا ينام له جفن إلا إذا ابتدع وسائل حديثة لاستعمالها في فنون التعذيب، والإذلال، وممارسته على أجساد الجزائريين الطاهرة العارية، رجالاً ونساءً، في مختلف الرّبوع، وكلّما فشل أمام صمود الشّعب وصبره وتحمله؛ جدّد الاستعمار البحث عن وسائل أخرى أكثر شراسة وأبلغ تنكيلاً، ولكنّ الرّد الثابت لهؤلاء المستضعفين هو دائماً ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾.³³

لكنّ المستضعف (بكسر العين) (اسم الفاعل) معلوم عند الإبراهيمي قبل غيره، فهو ممثّل في قوى الاستعمار الأوربيّ الحديث، وقد فضّل بناءهم للمعلوم؛ ليدلّل على معرفتهم معرفة

واضحة لدى العام والخاص، وأساليهم في الاحتقار معلومة في الدّاخل والخارج، لذلك وجب كشف عورتهم لأنّهم احتقروا، واستضعفوا شعبا أعزل لا حول له ولا قوّة!

1-4 التّمودج الرّابع: رسالة / رسالة الضّب³⁴

في إضافة غريبة كتب الإبراهيمي أجمل رسالة أدبيّة على الإطلاق، ووجه الغرابة أنّ تضاف الرّسالة إلى حيوان صحراويّ، لا يعرف عنه النّاس الشّيء الكثير، سوى اصطياده، وملء جوفه بالصّفوف، وتعليقه في بهو الدّار، أو يوضع داخل الممرّ، أو يسمرّ أعلى الأبواب؛ تبرّكا به لدفع العنّ والحسد، وحفظ البيت وأهله من شرّ حاسد إذا حسد.³⁵ وهي (رسالة الضّب) التي كتبها كأفضل ردّ على تلميذه الأستاذ أحمد بن أبي زيد قصيبة الأغواطي: "بعد أن أهدى هذا الأخير ضبّا محنّطا للطفّل أحمد نجل الإمام، وكان ذلك بتاريخ 11 شوال 1359 هـ/نوفمبر 1940م"³⁶ هديّة تتمثّل في (ضّب)؛ ليأخذها بدوره إلى والده كمؤنس له في وحدته القتالة، التي أجبره عليها الاستعمار الفرنسيّ في سجنه بأفلو.

والضّبّ كما في المعجم العربيّ الأساس: جمع ضبّاب، وأضّب: حيوان من جنس الرّواحف، غليظ الجسم خشنه، وله ذنب عريض خشن ملتو. وأنثى الضّبّ ضبّبة، وجمعها ضبّبات وضبّاب.³⁷ وهذه الإضافة الجميلة (رسالة الضّب) كنكرة إلى معرفة، فيها إشارة بديعة إلى الرّسائل "المشفّرة" التي قد يكون تلميذه الأستاذ أحمد بن أبي زيد قصيبة قصدها من خلال اختياره لهذا الحيوان (الضّب) كسلوان للإبراهيميّ في خلوته الجبريّة في أفلو، وهي الرّسائل (الدروس) التي فاتت الشّيخ وقتها، ولم يدركها إلاّ بعد حين من الدّهر، وبعد صفاء من الدّهن استدعى فيها مخزونه من الدّأكرة الجبّارة حول حيوان (الضّب)، فإذا هو رمز ينطوي على عشرات الرّموز؛ يمكن للبشر أن يستأنسوا بها؛ وهو ما دعا الشّيخ الإبراهيميّ إلى استدعائها وإملائها على ابنه أحمد بعد مدّة طويلة؛ فإذا هي رسالة طويلة جدّا اختار لها عنوان (رسالة الضّب).

إذن فاختيار (الضّبّ المحشوّ) كهديّة لم يكن عبثا، ولم تمله الاعتباطية. صحيح أنّ المسجون لا يسلوه سوى تبادل أطراف الحديث مع الناس، أو تقليب التّظّر في صفحات الكتب والمجالات والصّحف، أو التّفرّغ لتلاوة الآي الحكيم من القرآن الكريم، أو كتابة ما يجول في خاطر من خواطر وأفكار... لكنّ الحصيف من ينظر إلى دلالات هذا الحيوان فيتعرّف على رمزيّته؛ فيتخذ منها السّلوان مع تعاقب الليل والنّهار الطّويلين اللّذين زادهما ألما ظلمة الاعتقال وبرودة المعتقل.

وقد ذُكر الإبراهيمي في عنوانه المبتدأ "رسالة الضَّب"، وحَدَفَ الخبر "المقدّر" كإشارة إلى الأسرار التي ينطوي عليها حيوان "الضَّب"، والتي غابت عنه أول الأمر، وقصد إليها تلميذه دون ذكرها للإبراهيمي القابع وراء القضبان.

1-5 التّمودج الخامس: رسالة/ نصيحة وتحذير³⁸

اختار الإبراهيمي لرسالته هذه عنوان "نصيحة وتحذير"، وقد فضّل الابتداء بنكرة (نصيحة)، والعطف عليها بنكرة أخرى (تحذير) بوساطة حرف العطف (الواو).

والنكرة كما يعرفها التّحوّيون هي: "اسم يدلّ على شيء واحد، ولكنّه غير معيّن"³⁹ و(النّصيحة) كما جاء في القاموس من مادة (نَ صَ ح)، جمعها نصائح وهي: قول فيه دعوة إلى الإصلاح، ونهي عن الفساد. "مانفك يسدي إليه نصائحه"، "اتبع نصائحه"، "طبّق نصيحته."⁴⁰ والإبراهيمي بحكم مركزه العلمي، ومكانته الأدبية السّامقة، وسمعته الطّيبة التي ملأت الآفاق، وتجاربه الغزيرة الثّرية، هو أهل لإسداء النّصح لمن طلبه، ولمن لم يطلبه، والواجب على الجميع العمل بأحسن ما فيه.

و(التّحذير): "هو بيان يحتوي على تعليمات يجب الالتزام بها"⁴¹ وفي النّحو العربيّ التّحذير هو: "أسلوب يراد به تنبيه المخاطب على أمر مكروه ليتجنّبهُ."⁴²

وقد جمع الإبراهيمي في عنوان رسالته (نصيحة وتحذير) بين متناقضين؛ وفي الوقت نفسه متلازمين، فالنّصيحة تُعطى للالتزام بالأشياء الحميدة، والأخلاق السّامية، والعادات النّبيلة... التي تعود بالنّفع على المنصوح، وتنبيهه إلى الممارسات الحسنة؛ بينما تضمّن الشّق الثّاني من العنوان (التّحذير) وهو أسلوب يتضمّن تنبيه المخاطب إلى ضرورة الابتعاد عن الأشياء المكروهة، والأفعال القبيحة والسلوكيات المنبوذة والتّصرّفات غير المحسوبة.

وقد عطف الإبراهيمي في عنوانه كلمة (تحذير) على كلمة (نصيحة) بحرف (الواو) العاطفة، وهي: "حرف عطف مبني على الفتح لا محلّ له من الإعراب، وهي لمطلق الجمع، إذ تعطف متأخراً في الحكم."⁴³

والنّصيحة - عادة - تُسدى للقريب أو للحبيب. والإبراهيمي يعتبر الشّعب الجزائريّ كلّه أحبّاه وأقرباء له، ومن حقّهم عليه أن ينصحهم بما يعود عليهم بالنّفع. وقد كانت النّصيحة في هذه الرّسالة موجهة - بوجه أخصّ - للطلّبة الجزائريّين الذين جازفوا بالهجرة إلى مصر للالتحاق

بالأزهر الشريف للتبحر في العلم، ونيل الشهادات العليا، دون أن تتوفر فيهم الشروط اللازمة فضاءوا. فنصحهم أن يتوقر فيهم السنن اللازمة، وأن يحسنوا اللغة العربية، وأن يضمنوا الإشراف عليهم، والقدرة على الإنفاق...

والتحذير يكون - غالباً - من أعداء الداخل، أو أعداء الخارج، أو من النفس الأمارة بالسوء، أو من شياطين الإنس والجن. وقد حذر الإبراهيمي الطلبة الجزائريين من المخاطرة بأنفسهم خاصة أولئك الذين تجاوزوا العشرين من العمر، ولم يحصلوا العلم الكافي لمتابعة دروس الأزهر، وليس معهم الأموال ولا حققوا الوعد بالإشراف... فهؤلاء نصحهم بالبقاء في الجزائر والتعلم في مدارس الجمعية (ج ع م ج)، خير من السعي إلى مصر لجني الألقاب.

وقد بدأ العنوان بذكر الخبر (نصيحة) مباشرة، وعطف عليه ب (تحذير)، وحذف المبتدأ المقدر (هذه) و(هذا)؛ للدلالة على أهمية الخبر (نصيحة)، وخطورة الخبر (تحذير). فالأمر لا يحتاج إلى تأخير أو مقدمات، بل يتطلب مباشرة في الموضوع، ولو من خلال العنوان اختصاراً. وقد جرت العادة أن يسبق التحذير النصح؛ لكن الإبراهيمي فضل السبق بتقديم النصيحة ابتداءً - على غير المألوف - ثم انطلق إلى التحذير انتهاءً... فالنصيحة عنده أهم؛ فقدّمها والتحذير أقل أهمية فأخره. لأنّ اللبيب بالإشارة يفهم. وهو ما تتطلبه عملية النصيحة.

وفي العنوان (نصيحة وتحذير) لطيفة لغوية جميلة فقد أورد الإبراهيمي كلمة (نصيحة) بصيغة المؤنث لما في التأنيث من معاني اللين والرحمة واللطف والحسن، بينما كلمة (تحذير) أوردتها بصيغة المذكر لما في التذكير من الحشونة والغلظة والفض والزجر. ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّفُتِنَّا مِن حَوْلِكَ ۚ فَأَعَفُّ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۚ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾⁴⁴.

2 - العناوين جمل فعلية:

نجد قلة من رسائل الإبراهيمي ووصلتنا، ديج عناوينها في شكل جمل فعلية (فعلها ماض أو أمر)، وبعد قراءة النصوص؛ يكتشف القارئ أنّ صيغ الأفعال هي المناسبة للمقام. فالجملة الفعلية: "هي التي تبدأ بفعل غير ناقص". نحو: "نحو: "نحو زيد" ⁴⁵، وهي: "تدلّ بأصل وضعها على التجدد في زمن معيّن مع الاختصار؛ فلا يستفاد من نحو: طلعت الشمس، إلا إثبات الطلوع

فعلا للشمس في زمن مضى. وقد تفيد الاستمرار التجددي شيئا فشيئا بمعونة القرائن إذا كان الفعل مضارعا. ⁴⁶

وإذا كانت الجملة الاسمية لها أبعاد - كما عرفنا آنفا - فإنّ للجملة الفعلية أيضا أبعادا لغوية، ودلالات معنوية، وأغراضا بلاغية ذكرها النحويون والبلاغيون في مصنفاتهم - قديما وحديثا - ولذلك لم يكن اختيار الإبراهيمي للجملة الفعلية كعناوين لرسائله عشوائية؛ ولا اعتباطية؛ وكيف لا وهو العالم باللّغة ونحوها وبلاغتها، والخبير بأسرارها ومكنونات جواهرها.

2-1 - التمدج الأول: رسالة / حدثونا عن العدل فإننا نسيناه ⁴⁷

بدأ الإبراهيمي عنوان رسالته بهذا الأمر (حدثونا)، والخطاب موجّه إلى الفرنسيين المتغصّبين فقط، بأنّ يحدثونا عن العدل في حياتنا؛ لا أن يحقّقوه لنا؛ لأنّهم عدوّ معتد، والعدوّ دوما ظالم. أليستوا هم الزافعين في بلادهم شعار (العدل، الأخوة، الحرية)، وصكّوه على وثائقهم الرسمية، وعلى غملاهم الوطنية بخط جميل، فما تفسيرهم للظلم، والقهر، والاستعباد، والاستبداد الذي يمارسونه على الشعب الجزائريّ الأعزل قرنا وتيف، اغتصبوا أرضه، وانتهكوا عرضه، وسلبوا حرّيته، وصادروا أمواله، وجهّلوا عقله، وما زالوا على هذا العهد من الطغيان؛ حتّى نسي شعبنا في قاموسه شيئا يسمّى "العدل"؛ لأنّنا نسيناه، بل أنسيناه!

وقد صاغ العنوان في شكل جملتين تامّتين تضمّنتا جميع العناصر المطلوبة؛ ليخصّ المشهد كلّه في مجرّد "عنوان".

فالشّق الأول (حدثونا عن العدل)، تضمّن جميع عناصر الجملة الفعلية (الفعل والفاعل والمفعول به)، وتعدّاه بشبه جملة من الجار والمجرور (عن العدل) لتكتمل الصّورة عمّا يريد.

بينما ضمّن الكاتب الشّق الثاني من العنوان (فإننا نسيناه) جملة منسوخة ومؤكّدة تامة العناصر (الناسخ، الاسم والخبر). ولعلّه تعمّد توظيف الخبر جملة فعلية، بالضّمير الجمعيّ؛ للإنباء عن ألسنة جميع الجزائريّين بأنّهم جميعا نسوا العدل، فقد وظّف أيضا جميع عناصر الجملة الفعلية، [الفعل (نسي)، والفاعل (الضمير/نا)، والمفعول به (الضمير/الهاء)].

وفي هذه الرّسالة ربط العلامة الإبراهيمي في عنوانها بين (الإنشاء والخبر) ربطا جميلا موحيا ف: "المتكلّم البليغ والأديب المقتردر هو الذي يعرف مواطن الكلام وما يقتضيه كلّ موطن منها،

فيورد كلامه، ويصوغ عباراته ملائمة للمقام. وتنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء؛ مما يجذب السامع، ويحرك فكره ويدعوه إلى المشاركة بوجدانه وأحاسيسه، فعلى البليغ مراعاة ذلك".⁴⁸

والإنشاء هو: "قول لا يحتمل الصدق والكذب"، وذلك لأنّ أساليب الإنشاء يقصد بها كما - قلت - إلى إنشاء المعاني، وصوغها ابتداء؛ ليطلب بها مطلوباً حيناً...، وهذا لا يعني أنّ أساليب الإنشاء ليس لها نسبة خارجية حتى ينظر في مطابقتها للنسبة الكلامية، فيكون المعنى على الصدق أو عدم مطابقتها، فيكون المعنى على الكذب بل لها نسبة خارجية وهي قيام المعنى الإنشائي من تمنّ أو أمر أو نهي أو استفهام أو نداء في نفس المتكلم، ولكن ليس المقصود من الجملة الإنشائية الإخبار لمطابقة هذه النسبة للنسبة الكلامية، وإنما المقصود هو إنشاء المعنى وابتدأؤه".⁴⁹

وفيه (حدّثونا عن العدل) نوع من الجمع يسمّى "مقابلة الجمع بالجمع" ...تقتضي مقابلة كلّ فرد من هذا بكلّ فرد من هذا، كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِشُوا ثِيَابَهُمْ﴾⁵⁰. أي: استعشى كلّ منهم ثوبه.⁵¹ وكأنّ العلامة الإبراهيمي يدخل في أمره (حدّثونا) المخاطبين من الفرنسيين، كلّ الفرنسيين دون استثناء (عن العدل)، كأنّ لسان حاله يقول لهم: أيّها الفرنسيون أتمم الذين حرمتهم الشعب الجزائري كلّ من العدل طيلة قرن وتيف، واستبدلتموه بالظلم والجور إلى درجة - مع الوقت - نسيناه - نحن الجزائريين - عن بكرة أبينا، فلم يبق منه في أذهاننا سوى ثلاثة حروف فقط مرسومة بهذا الشكل (ع، د، ل)!

أما الشق الثاني من العنوان (فإننا نسيناه) فقد صاغه الإبراهيمي في شكل جملة اسمية مؤكّدة بالحرف المشبه بالفعل (إنّ)، مقترنة بـ (الفاء). فالمبتدأ (إنّا) ضمير منفصل يختصر الدلالة على كافة الشعب الجزائري؛ كلّ الشعب، حقاً وصدقاً.

ولأنّ الإبراهيمي ضليع باللّغة العربيّة فلا يمكن أن تفوته أنّ للجملة الاسميّة أبعاداً وأغراضاً تفيدها يرغب في تحقيقها لدى القارئ الجزائري خاصة، والمواطن العربيّ عامّة، ليثبت في قناعتهم أفكاراً معيّنة، توحى بمعان عميقة ينبغي التنبه إليها مع وضع نصب الأعيّن حقيقتها لتدارك دلالاتها وتركيزها في النفس. فالجملة الاسميّة تفيد الثبوت والدوام؛ ممّا يوحي بثبوت نسيان العدل من قاموس الجزائريين، وديمومة ذلك منذ وطئت أقدام الاستعمار الفرنسي أرض الجزائر.

بينما الخبر أوردته جملة فعلية (نسيناه) مكتمل الأركان [الفعل/ نسي)، (الفاعل/ نا)، (المفعول به/ الهاء)] للدلالة على التجدد والاستمرارية كما ذكرنا سابقا، فكلمة ظهر بصيص أمل في إعطاء الجزائريين حقهم في الحرية والعدل؛ جدد المستعمر الماكر أساليبه في تغييب العدل، 2-2 التّمودج الثاني: رسالة/ عادتْ لِعْتَرِهَا لَمِيسٌ.⁵²

في بعض رسائل الإبراهيمي الأخرى اختار لها عناوين من التراث العربي القديم، كأن يُعنون رسالة ما بمثل عربي، أو حكمة عربية بليغة يناسب موردها مضربها.

وقد أحيا أدينا أمثالا نسيها الناس منذ عصور، وكان يختارها بعناية فائقة، ثم يقوم بإسقاطها على الواقع المعيش؛ فتأتي موافقة تماما للأصل مع فارق في المورد.

والرسالة التي بين أيدينا وضع لها الإبراهيمي عنوان (عادتْ لِعْتَرِهَا لَمِيسٌ)،⁵³ وهو مثل عربي قديم من العصر الجاهلي، وقد جعله الإبراهيمي جملة فعلية، فعلها ماض (عادت)، لما يفيد من التجدد، وفيه تشبيه ضمني لعدوة الجزائر الأولى (الإدارة الفرنسية) بهذه المرأة العربية الجاهلية (لميس) المعروفة ببغائها وفجورها. إذ في كل مرة تعد الإدارة الفرنسية الجزائريين بشيء وتمنيهم فترة من الزمن، ثم تعود هي وساستها وقيادتها إلى عترها أي (أصلها) من إخلاف للوعد، ونقض للعهد، ونكوص عن كلمة الشرف، تماما كما كانت تعود (لميس) البغي إلى (عترها) التي نشأت عليه من البغاء والفجور وبيع العرض بعد أن تمّي الناس بتوبتها النصوح، وعودتها إلى الطهر والنقاء وإظهار الصلاح، والعفاف والإقلاع عن الخنا فترة من الزمن؛ ثم ما تلبث أن ترجع القهقري إلى أحضان الرجال، والإتيان بالبهتان تفتريه بين أرجلها. وهو دأب فرنسا وديدها في التعامل مع الجزائريين.

واختيار الإبراهيمي للمثل العربي كعنوان للرسالة لم نجد - فيما نعلم - أديبا عربيا كتب به، فهذا النوع من الأسلوب يحتاج إلى مهارة بارعة، يتمتع بها الأديب الحصيف، وإلى رصيد محترم من الحفظ في التراث القديم، وإلى معرفة دقيقة بالموارد والمضارب، وحسن الإسقاط على الواقع المعيش.

ونحسب أنّ الإبراهيمي - رحمه الله - جدير بهذه الأوصاف، فهو من الثلة النادرة التي شهد لها الجميع في المشرق والمغرب، ويكاد يكون حول شخصيته الأدبية والفكرية إجماع واعتراف بقوة حفظه البديعة، وذاكرته الجبارة، وأسلوبه الجميل، ولغته الفصيحة التي لا يجاربه فيها أحد،

وموسوعيته الفذة في الفكر والأدب والتاريخ والسير والأنساب والأمثال والحكم والشعر القديم والمتون... فضلا عن حفظه المبكر للقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

ولأمر ما ذكر ابن عبد ربه وهو يتحدث عن الأمثال بأنها: "وشى الكلام، وجوهر اللفظ، وحلي المعاني، والتي تحيّرهما العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها في كل زمان، وعلى كل لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عمّ عمومها، حتى قيل: "أسير من مثل" 54 " فالأمثال، لها دلالة واضحة على حياة الأمة... إنها بلا شك تكشف عن طبيعة حياة العرب والمسلمين، وتحلّي كثيرا من مظاهر هذه الحياة البسيطة أو المعقدة، والتي لم يهتم بها الشعر كثيرا، عنيت بذلك صور الحياة اليومية المعاشة، التي يجيها الغني والفقير، والرجل والمرأة... 55" ولهذا جعل منها إبراهيمي نصيبا في أدبه.

وفي هذه الرسالة الرائعة تأخر الفاعل (لميس) عن الفعل (عادت) بشبه الجملة (لِعترها). في انزياح جميل. فللتقدم والتأخير فوائد جمّة تعبّر عن مدى سعي العربيّة إلى تحصيل جمال التعبير والصياغة قبل كل شيء، ولو كان ذلك على حساب الترتيب الذي وضعه الأولون لتراكيبهم، يقول عبد القاهر الجرجاني متحدّثا عن فائدته: "هذا باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثمّ تنظر فتجد سببا أن راقك ولطفا عندك، أن قدّم فيه شيئا وحول اللفظ من مكان إلى مكان." 56

وقد تحدّث غيره عن قيمة هذه الظاهرة في اللغة العربيّة بل وصفها بأنها: "مظهر من مظاهر شجاعة العربيّة؛ ففيها إقدام على مخالفة لقرينة من قرائن المعنى من غير خشية لبس، اعتمادا على قرائن أخرى، ووصولاً بالعبرة إلى دلالات، وفوائد تجعلها عبارة راقية ذات رونق وجمال." 57

والظاهر أنّ إبراهيمي يميل إلى المثل القياسي الذي: "يراد به الأشياء المذكورة فيه لتوضيح الفكرة عن طريق التشبيه والتمثيل." 58 وهو دأب إبراهيمي في اختيار الأمثال وإسقاطها على وقائع معيشية اجتماعية، سياسية، فكرية... لتناسقها وتطابقها وتمثالها ف: "قد يكون معنى (ضرب المثل) نصبه للناس بإشهاره لتستدلّ عليه خواطرم كما تستدلّ عيونهم على الأشياء المنصوبة. واشتقاقه حينئذ من قولهم (ضربت الخباء) إذا نصبته وانبتّ طنبه." 59

ولا شك أنّ الإبراهيمي لا يضرب الأمثال أو ينطلق منها لطلب المزحة أو للعبث القصصي فالفترة التي عاشها تتطلب الجدّ والصرامة، وبخاصّة أثناء الحقبة الاستعماريّة الفرنسيّة التي عانى فيها الشعب الجزائريّ الأمرين؛ ولذلك نجده يجتهد في اختيار الأمثال كعناوين ويحاول إسقاطها على بعض الظواهر كي يقرب الصّورة للناس، إذ: "للمثل في الكلام مكانة هامة ووظيفة لا تنكر فائدتها، فله تأثير عجيب في الآذان، وتقرير غريب لمعانيها في الأذهان، وقد ذكر إبراهيم النّظام: يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام:

1- إيجاز اللفظ 2- إصابة المعنى 3- حسن التشبيه 4- جودة الكفاية، فهو نهاية البلاغة".⁶⁰

8- الخاتمة:

فهذه نماذج قليلة من العناوين التي اختارها الإبراهيمي لبعض رسائله الجميلة، وقد تبين لنا بعد دراستها جملة من النتائج يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1. عناية الإبراهيمي بالعناوين، وإتقان هندستها، والتفنّن في صياغتها. كتفنّنه في أسلوبه عامّة.
2. عناوين الإبراهيمي عتبة مهمّة جدّا تستهوي المتلقين للإقبال على النصّ وكشف غياته.
3. حسن حبكة عناوين رسائله، فلا يمكن فهم بعضها إلاّ بعد قراءة الرّسالة كاملة.
4. تنوّع عنونة الرّسائل بين الطّول والقصر، والخبر والإنشاء، وبين الجمل الفعلية والجمل الاسميّة.
5. البعد عن المباشرة في وضع العناوين لخلق التشويق لدى القراء، وليتسع أفق الانتظار في أفكارهم.
6. الاستفادة من التراث العربيّ كأمثال، وجعلها عناوين تتناسب ومتن الرّسائل.

هوامش:

¹ عبد الملك مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر)، 1983، ص: 314. ووجه هذه الرسالة إلى تلميذه أحمد بن أبي زيد قصيبة في مدينة الأغواط بتاريخ: 11 أشتّال 1359هـ / نوفمبر 1940م. (ينظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام الإبراهيمي، ج2/ص: 40).

² Leo H. hoek: la marque du titre , dispositifs sémiotiques d'une pratique textuelle, Mouton publishers, the hague, paris, new York, 1981, p: 05

³ Leo H. hoek: la marque du titre , textuelle, 1981, p: 05.

⁴ محمد الهادي المطوي، شعرية عنوان الساق على الساق فيما هو الفاريق، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد 28، العدد الأول، سبتمبر 1999، ص: 457.

⁵ بشرى البستاني، قراءات في الشعر العربي الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص: 34.

⁶ محمد فكري الحزاري، العنوان وسيمبوتيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ط1، 1998، ص: 10.

⁷ joesp besa camprubi: les fonctions du titre ,nouveaux actes sémiotiques ,82,2002- pulim ,université se liomges ,p:05

⁸ رحيم عبد القادر، وظائف العنوان في شعر مصطفى محمد الغماري، مجلة المخبر، ع4، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2008، ص: 98.

⁹ محمد الصالح خريفي، الديني والإيديولوجي في الرواية الجزائرية، مجلة قراءات، العدد 5، جامعة محمد خيضر، بسكرة، أكتوبر 2013، ص: 147.

¹⁰ حافظ المغربي، عتبات النص والمسكوت عنه، مجلة قراءات، العدد 3، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2011، ص: 160.

¹¹ حسان راشدي، في ظل إعادة كتابة التاريخ، مجلة قراءات، العددان: 7/6، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2014، ص: 10.

¹² عبد الله الغدّامي، الخطيئة والتكفير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط6، 2006، ص: 236.

¹³ عز الدين جلاوي، العتبات والتحول في روايات الطاهر وطّار، مجلة قراءات، العدد 3، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ديسمبر 2011، ص: 31.

¹⁴ *عزُّ من بيض الأنوق: مَثَل سائر يُضرب في ندرّة الشيء وقلّته، ويطلق على أي شيء صعب المنال.

¹⁴ عبد الملك مرتاض، مَحْضَة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1983، ص: 125.

¹⁵ هناك وظائف عدّة للعنوان أشار إليها جاكسون هي: "الوظيفة المرجعية (الإحالية)، الانفعالية، التأثيرية، التواصلية، الميتالغوية والإفهامية".

¹⁶ حميدة صباحي، العنوان وتفاعل القارئ، مجلة قراءات، العدد 5، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2013، ص: 247.

¹⁷ عباس حسن، النحو الوافي، ج1، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1980، ص: 15.

¹⁸ إميل بديع يعقوب، موسوعة النحو والصرف والإعراب، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1986، ص: 264.

¹⁹ إبراهيمي، مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة، البصائر، العدد 76، 18-04-1949. أو أحمد طالب إبراهيمي، آثار الإمام إبراهيمي، ج2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1987، ص: 53-58.

²⁰ آفلو: قرية في جبل العمور من الجنوب الوهراني، ولاية الأغواط حاليا، نفي إليها إبراهيمي لمدة ثلاث سنوات.

- ²¹ سورة القمر، الآية: 10.
- ²² عبد الملك مرتاض، محمد البشير الإبراهيمي أمير البيان؛ كرائم اللّغة وفصاحة اللّسان، مجلة جذور، السعودية، العدد23، مارس2006م.
- ²³ عبد الملك بومنجل، النشر الفني عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، 2009، ص:50.
- ²⁴ سورة يوسف، الآية: 86.
- ²⁵ صحيح البخاري، الحديث رقم: (3336)، وصحيح مسلم تحت الرقم (2638).
- ²⁶ عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص: 312 .
- ²⁷ الإبراهيمي، تحية غايب كالآيب، البصائر، العدد229، في15ماي1953م/ أو أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام، ج4، ص:181.
- ²⁸ سورة البقرة، الآية: 214 .
- ²⁹ محمد البشير الإبراهيمي، ويح المستضعفين، البصائر، العدد 118، 1ماي 1950م/ أو أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام، ج3، ص:358.
- ³⁰ إميل بديع يعقوب، موسوعة النحو والصرف والإعراب، ص:577.
- ³¹ أحمد العايدي وآخرون، المعجم العربي الأساسي (القاموس العربي)، لاروس، تونس، 1988.
- ³² مصطفى غلايني، جامع الدروس العربية، الجزء1، المكتبة العصرية، لبنان، ط3، 1991، ص:182.
- ³³ سورة طه، الآية:72.
- ³⁴ الإبراهيمي، رسالة الضّيب، آثار الإمام، الجزء2، ص:40.
- ³⁵ معتقد سائد في بعض الأسر الجزائرية.
- ³⁶ ينظر، آثار الإبراهيمي، الجزء2، ص:40.
- ³⁷ أحمد العايدي وآخرون، المعجم العربي الأساسي، ص762.
- ³⁸ محمد البشير الإبراهيمي، نصيحة وتحذير، البصائر، العدد، 11، سبتمبر 1953م.
- ³⁹ عباس حسن، النحو الوافي، الجزء1، ص:208.
- ⁴⁰ أحمد العايدي وآخرون: المعجم العربي الأساسي، مادة (ن ص ح).
- ⁴¹ المرجع نفسه، مادة (ح د ر). ص:300.
- ⁴² المرجع نفسه، ص:300.
- ⁴³ إميل بديع يعقوب، موسوعة النحو والصرف والإعراب، ص:570.
- ⁴⁴ سورة آل عمران، الآية: 159.
- ⁴⁵ إميل بديع يعقوب: موسوعة النحو والصرف والإعراب، ص: 264.

- ⁴⁶ إميل بديع يعقوبه، المرجع نفسه، ص: 49.
- ⁴⁷ محمد البشير الإبراهيمي، حدثونا عن العدل فإننا نسيناه، جريدة البصائر، العدد، 15، في ماي 1950م.
- ⁴⁸ بسيوني عبد الفتاح قيود، علم المعاني، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2004م، ص: 344.
- ⁴⁹ بسيوني عبد الفتاح قيود، المرجع نفسه، ص: 282-283.
- ⁵⁰ سورة نوح، الآية: 7.
- ⁵¹ السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، الجزء2، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1988، ص: 305.
- ⁵² محمد البشير الإبراهيمي: عادت لعتها لميس، البصائر، ع64، في 24 جانفي 1949م. / أو أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام، ج3، ص: 341-346.
- ⁵³ الإبراهيمي، البصائر، العدد64، بتاريخ: 24 جانفي 1949م. وآثار الإمام، الجزء3، ص: 341.
- ⁵⁴ ابن عبد ربه، العقد الفريد، تح: يوسف بركات هبود، دار الأرقم، بيروت، ط1، سنة1999، ص: 3/ 63.
- ⁵⁵ المفصل الضبي، أمثال العرب (من المقدمة)، تح: الحسين، دار مكتبة الهلال - بيروت، لبنان، ط1، 2003.
- ⁵⁶ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1995، ص: 106.
- ⁵⁷ صالح عبد العظيم الشاعر، التلقين والتأخير في النحو العربي، مدونة الدكتور صالح الشاعر على الشبكة العنكبوتية، (دت)، (د س).
- ⁵⁸ ابن قيم الجوزية، الأمثال في القرآن، تح: سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1981، ص: 20.
- ⁵⁹ ابن قيم الجوزي، المرجع نفسه، ص: 21.
- ⁶⁰ ابن قيم الجوزية، المرجع نفسه، ص: 22.